﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود: 67 - 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهما:

بيانُ عاقبةِ الكافرين بعد إنجاءِ المؤمنين

بعدَ أنْ جاءَ أمرُ اللّهِ بإنجاءِ أوليائِهِ المؤمنينَ منْ قوم صالحٍ عليه السلام، بيّنَ بعدهُ هنا إيقاعَهُ العذابَ بأعدائِهِ الظّالمينَ[1]، حتّى إنّهمْ لشدّةِ ما وقعَ عليهِمْ من العذابِ؛ ألْفَيْتَ حالَهُم كأنّهمْ لمْ يَحْيَوا ويتنعّموا في سالفِ عهدِهِمْ قطّ؛ فَبُعدًا لهمْ وطردًا فهذا هو استحقاقُهُمْ، فالمناسبةُ بين الآيتين بيان عاقبة الكافرين بعد ذكر إنجاءِ المؤمنين، في تحقيقِ الوعدِ والوعيدِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ[2]، والصِّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]. والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صِيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكُوا. والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فُوجِئَ الحيُّ بِها[4]. ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تُفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]. والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صاعِقَةُ العَذابِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/325.
(2) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ (جثم): يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ[1]. يُقال: جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والخِشْف والأرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجُثُوماً، فَهُو جاثِم: لَزِم مَكانَهُ فَلَمْ يبرحْه، أي تَلَبَّد بالأرض، وقِيلَ: هُو أن يَقَعَ على صَدْرِهِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: 78]، أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين، أي: بارِكين[3]، والجُثْمان: شخص الإنسان قاعدًا، ورجل جُثَمَة وجَثّامَة كناية عن النّؤوم والكسلان[4]. والمقصود بالجاثم في الآية: المُكِبُّ على صَدْرِهِ في الأرْضِ مع قَبْضِ ساقَيْهِ كما يَجْثُو الأرْنَبُ.

3) ﴿يَغْنَوْاْ﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ. الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الاستِغناءُ والكِفايةُ، يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكْفِي كِفايَتَهُ[5]. وغَنِيَ القَوْمُ في دارِهِم: أقامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِها[6]. والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاسْتِغْناء عَن الشَّيْءِ[7]. والمغاني: المنازِلُ الَّتي يَقْطُنُها أهلُها، واحِدُها مغنًى[8]. والغانِيَةُ: المُسْتَغْنِيَةُ بزوجها عن الزِّينة، وقيل: المُسْتَغْنِيَةُ بِحُسْنِها عن التَّزَيُّن[9]. والمراد بقوله (يَغْنَوا) في الآية: الإقامة، أي: كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوا فيها. وفيه إبانةٌ عن سوءِ حالِ المكذِّب نبيًّا من أنبياء الله في أنَّه بمنزلة من لم يستمتع بالدُّنيا[10].

4) ﴿بُعْدًا﴾: أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[11]. والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاكِ كَما في (الصّحاح) وغَيره، ويُقال: إنَّ الَّذي بمعنَى الهلاكِ إنَّما هو بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَدًا. ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشار إلى أفصحِيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جثم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جثم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جثم).
(4) الرّاغب، المفردات: (جثم).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 9/240.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

الهلاك[1]. أمّا المقصود بالبُعْد في الآية: فهو كِناية عَنِ التَّحقيرِ بلازِمِ كراهيةِ الشَّيءِ؛ فلذلكَ يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُهُ لِمَنْ فُقِدَ، إذا كانَ مَكرُوهًا، كما هُنا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـزولُ العـذابِ بكـفـرِ العـبـادِ وعنادِهم

بعد أن تمادوا في ظلمهم وغيِّهم أخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثَمودَ الظّالمينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطينَ على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربِّهم وجَحَدوا بآياتِه وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم من رَحمةِ اللّهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

بين الإنذارِ وأخذِ العـذابِ مهلةٌ متوسِّطةٌ يسيرة

في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ عطفَ الجملةَ على ما سبقَ بالواوِ لما بينَ أخذِهمْ بالعذابِ وإنذارِهمْ منْ وقتٍ وقّته لهمْ، وهيَ الأيامُ الثّلاثةُ، فحسُنَ عطفهُ بالواوِ لا بالفاءِ ولا ثُمَّ لما بينهما من المهلةِ والوقتِ المتوسِّط القليل، فهو ليس بالوقت الطويل فيُعبَّر عنه بأداة التَّراخي، ولا بالسَّريع فيُؤتى بالفاءِ، وحسنَ الوصلُ لما بينَ إنجاءِ المؤمنينَ وأخذِ الظّالمينَ من تعالُقٍ وتتابعٍ وتكاملٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأخذِ:

التَّنبيهُ على شدَّةِ الصَّيحةِ وقـوَّةِ التَّعذيب

في لفظِ الأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إسنادٌ مجازيّ؛ وذلك أنَّ الآخذَ الحقيقيّ هو اللّهُ تعالى، ونكتة التَّعبيرِ بالأخذِ أنَّ معنى الأخذِ الاستيلاءُ على الشّيءِ بقوةٍ وعنفٍ؛ فلا يستطيعُ المأخوذُ الإفلاتَ منهُ وإنْ حاولَ؛ لأنَّ في الأخذِ من الشّدّةِ ما لا يستطيعُ منه فكاكًا[4].

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بعد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/79.
(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 229.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/10077.

إجراءُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

الفعل (وأخَذَ) استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّةٌ

في التَّعبيرِ بالأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الإصابةَ ووقوعَ الصَّيحة بالأخذِ، ثم حذف المشبَّه وصرَّح بالمشبه به واشتقَّ منه فعلَ أخذ الماضي على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

نكتةُ تذكيرِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

لمّا كانت الصّيحةُ بتأويلِ الصّياحِ الكثير والخزي العظيم ناسبَ ذلك تذكير الفعل

أوردَ النَّظمُ الفعلَ مذكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ معَ أنّ الفاعل ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مؤنثٌ، وتوجيه ذلك: أنّهُ لمّا كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ أوردهُ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيث[1]، للجمعِ بين المعنى الأصلي للمصدرِ، ولفظ الصيحة، وهو أوعبُ دلالةً، فلمّا كانَ الجرمُ الّذي ارتكبهُ قومُ ثمودَ عظيمًا بعقرهِمُ النّاقةَ بعدَ تحذيرهِمْ فلا يصحُّ أنْ يفهمَ أنَّ الصّيحةَ جاءتْ لتعبّرَ عنْ صيحةٍ واحدةٍ، بل لتكرّرها فتكونُ صياحًا كثيرًا مناسبةً لجرمهِمْ فَحَسُنَ التّذكيرُ[2]، أو أن نجعل ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ بمعنى العذابِ والخزي، فقويَ تذكير الفعلِ على اللَّفظ.

نكتةُ العدولِ من المضمَرِ إلى المظهَرِ:

تسجيلُ علَّةِ العذابِ

وعَدَلَ عن المضمَرِ إلى المظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ "تسجيلًا عليهم بالظّلم، وإشعارًا بعلّيَّتِه لنزولِ العذابِ بهِم"[3]؛ لما في الإظهارِ من استحضارِ المعاني ما لا يكونُ مع المضمَرِ.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ به:

إذا نَزَلَ العذابُ تسلَّط على الظّالمين

قُدِّم المفعولُ به في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وذلك لأمورٍ: الأوَّل: دلالي، وهو العناية بالمفعولِ به، لبيانِ أنَّ الأخذَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/125، وابن الأنباريّ، المذكر والمؤنث: 2/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6544.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

تسلَّط على الظّالمين. والثّاني: لفظي، وهو الفصلُ بين الفعل المذكر والفاعل المؤنث. والثّالث: سياقي، وهو أنَّ سياقَ الكلام هنا على الظّالمينَ وعاقبتِهِمْ؛ فكانَ من المناسبِ تقديمُ ذكر الظّالمين، على ذكرِ العذابِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

تذكيرُ الأخذِ في ثمود نظرًا لمعنًى مذكّر وتأنيثه في قوم شعيب لتوالي اللّفظ المؤنث

استعملَ فعلَ الأخذِ في قصّةِ ثمودَ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيثِ، فيما أوردهُ مؤنثًا في الآيةِ الأخرى منْ قصّةِ شعيبٍ ﷺ ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 94]، فما الوجهُ في تذكيرِ ما ذكّرَ وتأنيثِ ما أنّثَ؟

الجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ في قصّةِ ثمودَ دالَّةٌ على الصّوتِ فَحَسُنَ التّذكيرُ، أمّا تأنيثُ الصّيحةِ في قصّةِ شعيبٍ؛ فلأنّ الحقّ سبحانهُ أخبرَ عنْ عذابِ قوم شعيبٍ بثلاثةِ ألفاظٍ تصوّرِ أطوارَ عذابِهِمْ، وهيَ الرّجفةُ؛ رجفتْ بهمْ فانزعجوا منها، وخرجوا إلى البَراحِ فلمّا نالتهُمْ حرارةُ الشّمسِ مالوا إلى سحابةٍ سكنوا عندَها فعبّرَ عنها بالظّلّةِ، فأخذتهُمُ الصّيحةُ، وأنتَ ترى أنَّ (الرّجفة) و(الظّلّة) و(الصّيحة) ألفاظٌ مؤنثةٌ فناسبَ التّأنيثُ التّأنيثَ وازدادَ حُسنًا[1].

كما أن الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخِزي، إذ كانت منتظمة بقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، فصارتِ الصَّيحةُ عبارةً عن ذلك الخزي، وعن العذاب المذكور في الآية، فقَوِيَ التذكير، بخلاف الآية الأخرى[2].

عذابُهم بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظُلمِهم وإشراكِهم

سرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

عبّرَ النَّظمُ عن قوم ثمودَ بالاسم الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، دون الاسم الظّاهرِ؛ فإنّ الاسمَ الموصولَ

(1) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/764، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 131.

يومئُ إلى علّةِ ترتّبِ الحكم؛ فالأخذُ بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظلمهِم وهو الإشراكُ باللّهِ ومحاربةُ أنبيائه[1].

سرُّ التّعبيرِ بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ:

التّعريضُ بمشركي مكّةَ بقصدِ التّحذيرِ

عبَّر النَّظم بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الظُّلمَ حاوٍ لمعنى الكفر والتَّكذيب، فهُما داخلان في مفهومه سياقًا، كما أنّهُ أرادَ أنْ يكونَ كلامهُ هذا تعريضًا بمشركي مكّةَ، بأنْ يحذروا منْ أنْ يُصيبَهُمْ ما أصابَ قومَ ثمودَ لأنَّهم ظالمونَ مثْلُهمْ[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالصّيحةِ:

من لم يستمع لصيحاتِ الحقِّ أُسمعَ صيحةَ العذابِ

اختيرت لفظةُ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ باعتبارِها العذاب الذي جاءَ به المَلَكُ الموكّلُ؛ لأنّهمْ لمْ يرقّوا لصياحِ نبيِّهمْ ودعوتِه، ولا لصياحِ فصيلِ النّاقةِ، ولا لانتْ قلوبُهمْ لصياحِ النّاقةِ حينَما عقروها؛ فكانَ عذابُهمْ بالصّيحةِ منْ جنسِ عملِهمْ ومرتكبِهمْ[3].

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

التّنبيه على سرعةِ إيقاعِ العذابِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: عذابُ الصيحةِ، فإنَّ للصَّيحةِ عذابًا، وبه يتَّجه تذكيرُ فعل الأخذ، وعبَّر بالمضافِ إليه دون المضافِ لبيانِ سرعةِ إيقاعِ العذابِ بهم[4]، وذلك أنَّ الصيحة تتميَّز بسرعة وقوعِها.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الكفرُ هو سببُ حالِ المُعذَّبين على التَّحقيقِ

عقّبَ النَّظمُ أخذَهُم بالصّيحةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.

دِيَرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فصدَّرَها بالفاءِ "والغالبُ في الجملةِ المعطوفةِ بالفاءِ أن يكونَ معناها متسبّبًا عن معنى الأولِ"[1]؛ فإنّ إصباحَهُم على هذهِ الحالةِ مسبَّبٌ عن أخذِهم بالصّيحةِ عذابًا لهم؛ فالفاءُ دالةٌ على السّببيَّةِ، أي: فأصبحوا على هذه الحالِ بسبب الصَّيحة، وما كانت الصَّيحة إلّا بسبب كفرِهم وتكذيبِهم على التَّحقيق، فيكون إصباحُهم على هذه الحالِ بسبب كفرهم وتكذيبِهم على التحقيق.

دلالةُ اختيارِ لفظِ الإصباحِ:

نزولُ العذابِ في الصَّباحِ خلافُ المُنتظرِ من العملِ والحركةِ

اختيرَ لفظُ الإصباحِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرهِ من الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ منْ معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ من الحركاتِ وما يشتهيهِ من التّصرفاتِ[2]، فَيَفْجَؤُهُمُ العذابُ على خلافِ ما يظنّونَ؛ فيكونُ أكثرَ وقعًا عليهمْ، وأشدَّ أثرًا، فتُحيطُهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الصباحِ فيه مزيدُ عذابٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

البقاءُ في الدّيارِ الموعودةِ بالعذابِ أمارةُ العنادِ وشديدِ الكفرِ

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيةِ (في) في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، فإنّهُ أمرهُمْ بأن يتمتّعوا في ديارهِمْ، ثمَّ نزلَ العذابُ عليهمْ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى شدّةِ عنادهِمْ وعظيم كفرهِمْ بتمتّعهمْ وشعورهِمْ بالأمنِ حتّى أنّهمْ كانوا ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣﴾ [الحجر: 82 - 83]، أيْ: آمنينَ من العذابِ في ديارهِمْ؛ فدلَّ حرفُ الظّرفيةِ على بقائهمْ على ما همْ عليهِ عنادًا ومكابرةً وتحدّيًا للوعدِ، وفي ذلكَ كشفٌ عنْ أمرٍ غَيبيٍّ.

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/352.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

نكتةُ جمعِ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ دونَ إفرادِها:

عذابُ اللهِ النّازلُ لاينجو منه مَنْ تُوعِّد به

ورد لفظُ الدّارِ مجموعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ ولم يُفرِده، وذلك ليشملَ الدّارَ الخاصَّة بالإنسانِ، والدّارَ العامَّةَ التي هي بمعنى القُرى والبلاد، فيدخل فيه كلُّ من أصبح كذلك في دارِه خاصَّةً، أو في قريته وبلدِه عامَّةً، فلم ينجُ أحدٌ منهم من عذابِ الصَّيحة، ويبيِّنه قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

شأنُ الزّلزلةِ الاختصاصُ بجزءٍ من الأرضِ وشأنُ الصّيحةِ الانتشارُ

جُمعَ لفظُ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وأُفردَت في قصّةِ شعيبٍ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، فما توجيه ذلكَ؟

والجوابُ: أنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصَّةً بجزءٍ من الأرضِ فأفردَ بقولِه تعالى: ﴿دَارِهِمۡ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ من السّماءِ، ويكونُ منْ شأنِها الانتشارُ لتعُمَّ الأماكنَ المتنائيةَ، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا[1].

نكتةُ تقديم ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِه

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾ للتَّشويقِ بذكرِ الدِّيارِ، ثم بذكرِ حالِهم فيها، وللاهتمامِ بذكرِ أنَّهم في الدِّيارِ لم يتحرَّكوا منها ولم يُغادِروها، وغرضُهُ تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِه حتّى إنّه عاجلهُمْ بهِ فلمْ يستطيعوا حراكًا؛ فأصبحوا في ديارِهِمْ لاصقينَ على الأرضِ غيرَ قادرينَ على الحركةِ والهربِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالجثوم:

سُكون المهلَكينَ عندَ الهلاكِ حتَّى كأنّهمْ ما كانُوا أحياءً

وعبّرَ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاتِه، ومعناهُ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/169.

السّكونُ؛ ومنه: مبيتُ الطّيرِ في أوكارِها جثومٌ؛ فأطلقتِ العربُ هذا اللفظَ على ما لا حركةَ لهُ من الموتِ؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المهلكينَ بسكونهِمْ عندَ الهلاكِ؛ فكانَ حالهُمْ كأنّهمْ لمْ تكنْ بهمْ حياةٌ قطّ[1].

بلاغةُ التّشبيهِ:

تشبيهُ حالِ الاستئصالِ بحالِ منْ لَمْ تسبِقْ لهُ حياةٌ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ شبّهَتِ الآيةُ حالةَ إيقاعِ العذابِ بهمْ واستئصالهَمْ وعفاءَ آثارهِمْ بحالِ من لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا، والغَناءُ بمعنى الإقامةِ المقترنةِ بالعيشِ الرّغيدِ والنِّعمِ الوفيرةِ، فمحا العذابُ هذهِ كلَّها؛ فلمْ يبقَ شيءٌ أوْ بقيَ منهُ النّزْرُ اليسيرُ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾:

ذهابُ الذِّكرَى مرتهنٌ بذهابِ الطُّهرِ

وعبّرَ بقولهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ دونَ سواه من التّراكيبِ منْ مثلِ: لمْ يسكنوا أوْ لم يُقيموا؛ لأنَّ آثارهُمْ مُحيتْ بالكلّيةِ، والسّاكنُ والمقيمُ أثرُه باقٍ، فكأنَّ هؤلاءِ لمْ يكونوا فيها لانْمحاءِ ذِكرهمْ بعدَ هلاكهِمْ، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: 8]، أمّا الأبرارُ فإنّ ذِكْراهُمْ - وإنْ ماتتْ أبدانهُمْ - باقيةٌ خالدة، كأنّهمْ أحياءٌ يذكرهُمُ الذّاكرونَ بعدَ موتهِمْ[3].

فائدةُ اجتماعِ أداةِ التّنبيهِ وحرفِ التّوكيدِ:

التنبيهُ على استحقاقِ ثمود العذابَ وتنبيه المخاطَبِ لذلك

صُدِّرَتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بألا الاستفتاحيةِ، ثمَّ تلتْها (إنّ) المؤكّدةِ، لأمرين:

الأول: التَّنبيهُ على ما استحقّوه من العذابِ لمنْ يغفلُ فيسألُ عنْ ذلكَ؛ فإنّ ﴿أَلَآ﴾ تُقالُ عندَ الأمورِ المهمّةِ الهائلةِ، وهيَ لنفي الغفلةِ، وفيها إثباتُ المعنى بعدَ نفيهِ، وهو آكدُ منْ إثباتهِ مجردًا من النّفي[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

الآخر: تنبيه السّامعِ؛ فلا تأخذهُ الغفلةُ عن الأمرِ المهمِّ الصّادرِ عن المتكّلم؛ وليكونَ استقبالهُ للكلام استقبالَ المستفيدِ[1].

بلاغةُ التّعريضِ:

انـتـمـاءُ الـنّـبـيِّ للقبيلةِ لا يُغني عنها شيئًا

آثرَ النَّظمُ ذكرَ اسم ﴿ثَمُودَاْ﴾ الدّالّ على القبيلةِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ القبيلةَ لا تنفعُ أهلَها إنْ أعرضوا عنْ ذكرِ اللّهِ والإيمانِ بهِ؛ فكذّبوا وكفروا، ففيهِ تعريضٌ بقريشٍ وأضرابها منْ أنّ الانتماءَ للقبيلةِ أو العشيرةِ لا يغني عنْ أفرادِها شيئًا، وإنّما الفيصلُ الإيمانُ باللّهِ، فإنّهُ ﷺ حينَ أنزلَ اللّهُ ﷻ عليه قولَه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: 214]، قالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أوْ كَلِمَةً نَحْوها - اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ منْ مالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا»[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة:

وردتْ كلمةُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في الآيةِ على قراءتينِ، فقرأ يعقوبُ وحمزةُ وحفصٌ بغيرِ تنوينٍ، وقرأ الباقونَ بالتّنوينِ[3]، فمنْ لمْ يُنوِّنْ ذهبَ إلى امتناعهِ من الصّرفِ، فجعلهُ اسمًا للقبيلةِ لِعلّتَي التّأنيثِ والعَلَميةِ، ومَنْ نَوَّنَ جعلهُ اسمًا عَربيًّا بمعنى الحيِّ[4] أو القومِ لانتفاءِ المانعِ من الصّرفِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالكفرِ:

الغالبُ في صنيعِ ثمودَ الكفرُ باللهِ تعالى

عُبِّرَ بالكفرِ دونَ الظّلمِ في قولهِ تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾؛ لأنَّ الكفرَ هو التّغطيةُ والسّترُ فكأنهّمْ أوقعوا التّغطيةَ والسّترَ على ربّهمْ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6646.
(2) رواه البخاري، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2753)، واللفظ له، ومسلم، الصحيح، الحديث رقم: (206)، (351).
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/289 - 290.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/409.

وخالقهمْ ورازقهمْ، وهو المحسنُ إليهمْ بالخلقِ والرّزقِ، وهو الظاهرُ بأفعالهِ الأخرى، وفي ذلكَ بيانٌ لعظيم كفرهمْ وغلظتهِ[1]، ففيه بيانُ أنَّ الغالبَ عليهم هو الكفرُ، وأنَّ الظُّلم مرتبطٌ به.

نكتةُ حذفِ الباءِ:

من كفرَ الله تعالى فقد بالغَ في كفرِه وتمادى في غيّه

وفي قولهِ تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ حُذفتِ الباء فلم يَقلْ: (كفروا بربّهمْ)؛ وثمةَ فرقٌ جوهريّ بينَ أنْ يكفرَ الإنسانُ بربّهِ، وأنْ يكفرَ ربَّهُ، فما تعدّى بحرفِ الباءِ اعترافٌ بوجودِ اللّهِ معَ عدم الإيمانِ بهِ، وهيَ مرتبةٌ في الذّنبِ قبيحةٌ، أمّا ما اتّصلَ فيهِ الفعلُ بمفعولهِ منْ غيرِ الحرفِ فمرتبةٌ شنيعةٌ وخَصلةٌ ذميمةٌ؛ فإنَّ ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ بمعنى ستروا وجودَهُ ونَفَوْه؛ فلا وجودَ لهُ عندهمْ أصلًا فلا ذنبَ يعدلُ هذا الوصفَ[2].

فائدةُ التّصريحِ بلفظِ الكفرِ:

التّعريضُ بالأممِ الكافرةِ المبلّغة إقامةً للحجّةِ

لعلَّ سائلًا يسألُ ما فائدةُ التّصريحِ بكُفرهمْ وقدْ تبيّنَ ممّا مضى من أفعالهمْ ومرتكباتهمُ السَّيّئةِ ما يغني عن الوصفِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنّهُ صرّحَ بكفرهمْ معَ كونهِ معلومًا منْ أحوالهمْ تقبيحًا لهمْ، وتعليلًا لاستحقاقهمُ العذابَ والدعاءَ عليهمْ هلاكًا وتبعيدًا[3]، وتعريضًا بمن بعدَهم من الأمم، فإنَّ الأممَ الكافرةَ اللّاحقةَ إذا عَرفت مصيرَ السّابقة أُقيمت عليها الحُجَّة، وبَلَغها الإنذارُ.

فائدةُ تَكرارِ أداةِ التّنبيهِ:

الإعلامُ بتأبيدِ هلاكهمْ واستحقاقِهمْ عذابَ الاستئصالِ

كرّرَ النَّظمُ أداةَ التّنبيهِ في قولهِ تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ تأكيدًا لما نالهُم من عذاب، وفيه إعلامٌ بأنّ هلاكَهُم قائمٌ على وجهِ التّأبيدِ[4]، وقد جاءت أداةُ التّنبيه قبل الدُّعاءِ على ثمود بالطّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللّهِ؛ لجحودهمْ باللّهِ، وفي الدّعاءِ عليهمْ بعدَ هلاكهمْ دلالةٌ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6546.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.

على أنّهمْ مستحقّونَ لعذابِ الاستئصالِ بموجبِ كفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ نبيَّ اللّهِ، وعقرِهِمْ ناقةَ اللّهِ[1].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

بيانُ شديدِ غضبِ اللهِ تعالى على الأقوامِ الذين يجتمعون على الكفرِ

جاءَ لفظُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في فاصلةِ الآيةِ مُظهَرًا لا مُضمَرًا، وحقّه الإضمارُ، زيادةً في بيانِ غضبِ اللّه تعالى على ثمود باعتبارِها قد تمالأت على معصيتِه، واجتمعت على الكفر، وسارعت في عقر النّاقة، فكان ذكر اسم هذه القبيلة المجتمعة على الباطلِ ابتداءً وانتهاءً دليلَ غضبِ اللّه تعالى عليهم، وشديد لعنِهم وطردِهم من رحمته، فضلًا عن بيانِ استحقاقِهم ما نزل بهم منَ العقوبةِ واللّعنِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصيحة والصاعقة:

الصّاعقةُ مشتملةٌ على قطعةٍ من النّارِ والصّيحةُ أشدّ وقعًا وأعظم انتشارًا

الصّيحةُ من الصّياحِ وهو تَشقيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ – كما مَرَّ –، والصّيحةُ في الآيةِ "صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلّ صوتِ صاعقةٍ، وكُلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ وقد قُيّدت بأنّ دونَها صوتَ كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقةَ أقلّ وقعًا منْ جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي "الصّوتُ الشّديدُ منْ صوتِ الرّعدِ، يسقطُ منهُ قطعةٌ منْ نارٍ"[3]، وجعَلَ الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4] فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ من الصّاعقةِ، وأنّها تباينها منْ جهةِ الثانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قدْ تكونُ محددةً بموضعٍ معينٍ، بينما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمنْ فيها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/143.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»